عْاشُورْاءُ مدرسة إِنسانيّة

2018-09-13نـــــزار حيدر

كلُّ ما في عاشوراء إِنسانيّ؛

منطلقاتُها، أسبابُها، أهدافُها، أدواتُها، قيمُها وتضحياتُها.

ولذلك فهي للنّاسِ كافّة، فاذا قرأنا إِنتفاضات وثورات الأُمم والشُعوب على مرِّ التّاريخ وإِذا تصفّحنا أسفار تضحيات العُظماء على مرِّ التّاريخ فسوفَ نجدُ أنّها استلهمت من عاشوراء شيئاً أو أشياء! أمّا إِذا رأينا شعباً من الشُعوب يدّعي إِنتماءهُ لعاشوراء وهو يعيشُ الذُّل والصّغار! جاهلٌ ومُضلّل! يلهثُ كالكِلاب السّائِبة خلفَ سيّارة المسؤُول [الفاسِد والفاشِل] صارِخاً [بالرُّوح بالدّم] و [علي وياك علي] فتأكّدُوا بأنّهُ لم يتعلّم من عاشوراء شيئاً حتى لو سارَ الدّهر كلّهُ إِلى كربلاء وبكى على الحُسين السِّبط (ع) بدل الدُّموع دماً وأسال الدّم من رأسهِ وصدرهِ وظهرهِ حُزناً على الإِمام الشّهيد!.

إِنّ مدى قُربَ المرءِ وبعدهُ من عاشوراء ليس بالدِّين والمذهب والمكان والمُمارسات والشّعائر أبداً، وإِنّما بالقِيم والمبادئ التي يتعلّمها من عاشوراء ويجسّدها في حياتهِ اليوميّة، في الْبَيْتِ والمحلّة ومكان العمل والدِّراسة ومع أصدقائهِ ومع الآخر الذي يختلف معهُ في شَيْءٍ ما!.

إِنّ عاشوراء مدرسة إِنسانيّة في كلِّ شَيْءٍ أمّا؛

١/ الذين يتعاملُون معها بالدِّين والمذهب.

٢/ والذين يتعاملُون معها بطائفيّةٍ وعنصريّة.

٣/ والذين يتعاملُون معها كتاريخٍ مرّ وماضٍ مضى.

٤/ والذين يتعاملُون معها كظواهرَ دون مُحتوى وكعَبرةٍ دون عِبرة وكشعائِر دون جَوهر.

هؤلاء كلُّهم يؤمنُون ببعضِ عاشوراء ويكفرُون ببعضٍ ولذلك لا تترك فيهم الذِّكرى أثراً لا في حياتِهم الخاصّة ولا في حياتِهم العامّة!.

أرأيتَ أحداً يقتني سيّارةً فيترك محرِّكها في البيت ويريدُ أن يستفيدَ ممّا تبقّى منها ليقطعَ مسافةً مثلاً؟! أكيد إنّهُ مخبولٌ!.

إنّ مثل مَن يُرِيدُ نِصفَ عاشوراء ويترك النِّصف الثّاني أو يصطحب شيئاً من عاشوراء ويترك أشياء خلفَ ظهرهِ كمَن يترُك محرِّك السيّارة في المنزل ويأخُذ بقيّة أجزاءها! إنّهُ الجهل والجنونُ بعَينهِ!.

أو كالتِّلميذ الذي يحاولُ أن يدرسَ ما يُعجبهُ من المنهج التّعليمي ويترك ما لا يُعجبهُ! ثمّ ينتظِرُ في نِهايةِ السّنةِ الدِّراسيّة أن يجتازَ المرحلة! هل يستقيمُ ذلك؟! أبداً فالمنهجُ كامِلٌ ومُتكامِلٌ، فإمّا أن يدرسهُ ويستوعبهُ التِّلميذ كلّهُ أو يترك الصفّ ليهوي بهِ التسيُّب المدرسي إلى وادٍ سحيقٍ!.

فأيّهُما نختارُ؟!.

عْاشُورْاءُ: العدل والظُّلم]

إنّ ثُنائيّة [العدل والظُّلم] هي جوهر الأسباب والدّوافع التي أنتجت عاشوراء.

يقول الإمام الشّهيد الحُسين السِّبط (ع) يصفُ العلاقة بين الحاكِم والأُمّة {بغَيرِ عَدلٍ أفشَوْهُ فيكُم}.

هذا يعني أنّ شرعيّة السُّلطة، أيّة سُلطة، تنبع من العدل وليس من أيّ شَيْءٍ آخر، ويُخطئ مَن يظنُّ أنّ [الدِّين] أو [المذهب] أو [القوميّة] أو [الإنتماء الأُسَري أو العشائري] أو [الزّي] هو مصدر الشرعيّة للسُّلطة كما يذهب إلى ذلك إبن خَلدُون في نظريّتهِ الموسُومة بـ [العُصبة] أو [العصبيّة] والتي يبذل فيها قُصارى [جُهدهِ المعرفي] المسرُوق أصلاً من [رسائل إخوان الصّفا] لتبريرِ سُلطة

الأمويّين التي أقامها الطّاغية مُعاوية بن أبي سُفيان على قاعدة الثُّنائي [الدِّين والإِرهاب].

للأسف الشّديد فإِنّ بعض الذين يدّعُون إِنتماءهم إِلى عاشوراء يذهبُون ويتبنّون الْيَوْم ذات النظريّة فيتصوّرُون أنّ مُجرّد إِنتماء الحاكم إِلى [التشيُّع] مثلاً أو إِلى الإِسلام بشَكلٍ عام يكفي لتكونَ سُلطتهُ شرعيّة حتى إِذا أفسدَ أو فشل.

لذلك تتراجع شرعيّة السُلطة في بُلدانِنا بشَكلٍ كبيرٍ لأَنّ المِعيار لقِياسِها ليس العدل وإِنّما أشياء أُخرى لا علاقةَ لها بالشّرعيّة لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ.

هذا يعني أنّ إِنعدام العدل في المُجتمع يُحتّم الثّورة والخروج والنُّهوض للإِصلاحِ والتّغيير بغضّ النّظر عن هويّة وخلفيّة وانتماءِ الحاكِم، فإِنّ [الحُكم يدومُ مع الكُفر ولا يدُومُ مع الظُّلم] أو قولهُم [إِنّ الله يُقيمُ الدّولة العادِلة وإِن كانت كافِرة، ولا يُقيمُ الظّالمة وإِن كانت مُسلمة] والتي فسّرها أحد العُلماء الفُقهاء بقولهِ [إِنّ كُفر الحاكِم لنفسهِ وعدلهِ للرّعيّة وهو المطلُوب، وأنّ إِيمان الحاكِم لنفسهِ وظُلمهِ لرعيّتهِ وهو غير مطلُوب].

لماذا؟!.

لأنّ سرّ الخلق الذي أبدعهُ الله تعالى هو العدل، والذي يعني في جوهرهِ الالتزام بالحدُود وعدم تجاوزها، وهذا ينطبقُ على كلِّ شَيْءٍ وليس في المُجتمع فحسب كما في قولهِ تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

وما يُثيرُ الإِنتباه هُنا قولهُ تعالى {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}.

أي أنّ عاقِبة الظُّلم إِرتداديّة على المرءِ نفسه، إِذا تجاوز على حدُود الآخرين وعلى المُجتمع نَفْسَهُ إِذا تجاوز الحُدود.

وبنظرةٍ سريعةٍ لواقعِ الحال الذي نعيشهُ الْيَوْم في بُلدانِنا فسنلمِس هَذِهِ الحقيقة واضحةً للعَيان لا

تحتاج إِلى كثيرِ عناءٍ لاستكشافِها.

فعندما يتجاوز الأولاد حدودهُم في العائلة، أو يتجاوز أحد الزّوجَين حدُود الآخر، وعندما يتبوّأُ أحدٌ موقعاً في الدّولة هو ليسَ أهلًا لَهُ ولا يستحقّهُ بأيّ شَكلٍ من الأشكال مُتجاوزاً على حقّ الآخر الذي يستحق المَوقع! وعندما يتجاوز التّلميذ حدودهُ أو يعتدي الأُستاذ على حقُوق التّلاميذ فلا يبذل الجُهد العلمي اللّازم لتعليمهُم! وعندما يتجاوز الأثرياء حدود الفُقراء فلا يجدُوا {فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}! وهكذا! عندما يَكُونُ كلّ ذلك عندها تجد المُجتمع والدّولة في هرجٍ ومرجٍ ينتشرُ فيها الفساد والفشل والعُدوان على الحقوق.

وهذا هو الْيَوْم واقعُ الحال المُؤلم الذي نعيشهُ! أفلا يحتاجُ إِلى ثَورةٍ للتّغيير والإِصلاح تستمدُ مفاهيمَها من عاشوراء؟!.

عْاشُورْاءُ بصائِر القُرآن

أمرٌ يسيرٌ نوعاً ما.

وتارةً يفقدُ النّاسُ الأمل في الإِصلاح والتّغيير فيعمُ اليأس في النُفوس وعندها فليس أمامهم إِلّا خيارٌ واحدٌ هو الثّورة والخروج على الحاكمِ الظّالم.

يَقُولُ الامامُ الشّهيد الحُسين السِّبط (ع)؛

{ولا أمَلٍ أصبحَ لكُم فِيهِم}.

المُفارقة الغريبة في هَذِهِ الحالة هي؛

١/ أن يخلط النّاس بين اليأس من الحال واليأس من رحمةِ الله، بينَ اليأس بما في أيْدِي النّاس واليأس من قدرة الله تعالى! فبينما تدفع الحالة الأُولى النّاس إِلى العزم والمُثابرة للتّغيير، تدفعهُم الحالة

الثّانية رُبما إلى الكُفر أو على الأقلِّ للإرتداد.

٢/ وأمام الحالة الأُولى، وهي أمرٌ طبيعيٌّ، ينقسم النّاس إلى عدّة أقسام؛

أ/ فمنهُم مَن يجلس في بيتهِ وهو يردّد [مَيفيد] متحجّجاً بأعذارٍ شتّى للهربِ من المسؤُوليّة.

ب/ ومنهُم من يندفع نحو التّغيير والإصلاح بِلا رويّةٍ أو رُؤية أو خطّةٍ فيتهوّر حتّى يلقي نَفْسَهُ في التّهلُكة.

ج/ ومنهم من يفكّر ويخطّط ويهيّئ الأسباب والأدوات اللّازمة لإنجاز مهمّة التّغيير والإصلاح.

لقد مثّلت عاشوراء حالة الوعي الرّسالي للتّغيير والإصلاح فلم يترك الحُسين السّبط (ع) شيئاً إلّا وفكّر فيهِ وهيّأ أسبابهُ وأعدّ لَهُ العُدّة فكانت عاشوراء المصداق الواضح لقولِ الله عزّ وجلّ {قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

فلقد تصدّى الحُسين السّبط (ع) قائلاً {وأنا أحقُّ مَن غيّر} فلم يتردّد أو يتحجّج أو يرميها برأس غَيرهِ أو يجلس في ببتهِ أو في المسجدِ كما فعلَ غيرهُ تاركاً الأُمّة في حيرةٍ من أمرها!.

وإذا نُعيدُ قراءة وصيّة الإمام الشّهيد التي تركها في المدينةِ المُنوّرة عند أخيهِ محمّد بن الحنفيّة وكذلك قولهُ على لسانِ جدّهِ رسول الله (ص) الذي أعاد ذكرهُ على أسماع الهمج الرُّعاع الذين تجمهرُوا على قتلهِ! فسنجد هذا الوعي وهذه البَصيرة حاضرةً جداً في عاشوراء.

يقول (ع) في وصيّتهِ {ألا وإنّي لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً ولا مُفسِداً ولا ظالِماً، وإنّما خرجتُ لطلبِ الإصلاح}.

وهو الوعي المُستوحى من قولِ الله عزّ وجلّ {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا

تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.

وفِي خُطبةٍ قال (ع) {أيُها النّاس إنّ رسولَ الله (ص) قال: مَن رأى سُلطاناً جائِراً مُستحِّلاً لحرمِ الله ناكثاً لعهدِ الله مُخالِفاً لسُنّة رَسُولِ الله (ص) يعمل في عبادِ الله بالإِثمِ والعُدوان، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قَولٍ كانَ حقّاً على الله أن يُدخله مَدخَلهُ}.

وهي البصيرة المُستوحاة من قولِ الله عزّ وجلّ {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} وقولهُ تعالى {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

وهكذا! فعاشُوراء بصائِر القُرآن الكريم.

nazarhaidar1@hotmail.com